مجلة بحوث كلية الآداب
جامعة المنوفية

البحث
٤

معايير الشعبية فى الشعر العربى

إعداد

د / مرسى السيد مرسى الصباغ

مدرس الأدب الشعبى – قسم اللغة العربية

كلية التربية ببورسعيد – جامعة قناة السويس

محكمة تصدرها كلية آداب المنوفية
العدد الثانى والستون يوليو ٢٠٠٥
web site: http // : www.menofia. edu. eg *** http : // Art.menofia . edu. eg

منذ قديم الزمن ، وطوال عصور التاريخ كان العربي بفطرته ذا نفس حساسة وشعور راق وأريحية وأنفة ، وكان سريع الغضب .. فيه بديهة وارتجال .. وكان دءوب الحركة والنشاط يصول ويجول في الحروب ، وينتقل مع بعيره في كل مكان .. يحفر الآبار .. يستقي لنفسه ولأبله وأغنامه الماء العذب .. كان دائم التفكير في تلك الطبيعة الرحبة ، وذلك الفضاء الواسع الملئ بآيات الكون العظيم

كل هذا يوحي بأن العربي كان مؤهلا لقول الشعر ، وأنه لديه القدرة على رسم خيالاته في نظم فطري .. ، ولعلك إذا تدبرت تراثه لرأيت الشعر داخلا في كل عمل من أعماله ، ومرافقا لكل حركة من حركاته حتى ليخيل أنه كان لا ينطق إلا الشعر ، فالملوك والأمراء والفرسان والرجال والوجهاء والحكماء والصعاليك والعبيد والنساء واللصوص والمجانين واليهود والوثنيين .. كل اولئك قد تسللت القريحة الشعرية إلى كثير من بيوتهم بالتوارث عدة أجيال ، فهذا النعمان بن بشير الأنصاري من العريقين في الشعر خلفا عن سلف .. جده شاعر وأبوه شاعر وعمه شاعر وهو شاعر وأولاده شعراء (١)

وهذا كعب بن مالك من شعراء الصحابة .. كان أبوه شاعرا ، وعمه قيس شاعرا ، وأبناء كعب وأحفاده شعراء (٢) ، وخذ على ذلك أمثلة كثيرة (الكميت بن معروف ، وعبد يغوث بن صلاءة ، وبيت أبي سلمى ، وحسان بن ثابت ، والعجاج بن رؤبة ... وغيرهم) ، يضاف إلي هذا أن قول الشعر عند العربي لم يكن إلا لداع يحركه ، فقد يكون دفاعا عن عرض ، أو تحمسا لحرب ،أو تشكيا من فراق ، أو بكاء على فقيد ، أو نحو ذلك ، وهكذا ارتبط الشعر بقائله لأنه عبر عن كل ما يمس قلبه وحياته وحاجاته الوجدانية والعاطفية بل والمادية أيضا في سهولة ويسر ووضوح تام بل والأكثر من هذا أنه تغنى به بطريقة تجعل شعوره مستمرا ومتموجا حيثما أراد ووقتما شاء بإيقاع وبدون إيقاع ، ومن ثم عبّر الشعر العربي طوال تاريخه الطويل عن الفرد ، وعن الجماعة دون تمييز بين الأفراد من حيث الطبقة الاجتماعية ، أو الدرجة الثقافية ، أو الحرفة المهنية ، أو أي مفرق آخر بين أفراد المجتمع الواحد ..

وتحت هذا المعنى نجد مفهوم الشعبية والذي هو مأخوذ من كلمة(شعب) ، فالأصل فيها مأخوذ عن التقسيم الاجتماعي للعرب الأقدمين الذي كان يبدأ بالأسرة وتسمى عندهم الرهط أو الفصيلة ، وحين ينضم عدد منهم إلى بعضه يكوّن العشيرة ، ومن

العشائر يتكون الفخذ ، ومن الأفخاذ يتكون البطن ، والبطون تكوّن العمارة ، ومن العمائر تكون القبيلة ، ومجموع القبائل يكوّن الشعب (٣)

إذا فالشعب هو مجموع الناس في الأمة على اختلاف طوائفهم ودرجاتهم وانتماءاتهم ... ، هذا وبالنظر في الموروث الشعري العربي ومدى توافر الشعبية فيه نجد أن علماء الدراسات الشعبية درجوا علي الاحتكام إلي عدة معايير ليستطيعوا من خلالها الحكم على ما بين أيديهم من نصوص.. هل تعد من قبيل الشعبية أم خارجة عنها؟... هذه المعايير هي (٤) :

(اللغة ـ التداول والانتشار ـ الشعور الجمعي العام ـ التأليف ـ التراثية والخلود)

أولا : اللغة

يخطئ من يظن أن الكلمات الفصحى ما هي إلا الكلمات الدارجة في القواميس .. فمعاجم اللغة العربية لم تشتمل علي كافة مفردات العربية ، كما أن بعض الشعراء يأتون في أشعارهم بكلمات معجمية دون أن يعلموا أن هناك معاجم تضم في ثناياها تلك الكلمات، ويخطئ من ينظر للشعر الشعبي علي أنه هو الذي يقال باللهجات الدارجة ، فدارس الشعر الشعبي علي أسس سليمة سيجد أن لغته اقرب إلي الفصحى منه إلي العامية وان استغلاله للهجات الدراجة إنما بغرض التبسيط والتقريب إلي جموع الشعب ... أما الزعم بأن معظم الناس لن يفهموا الشعر الفصيح فهذا زعم مردود ذلك لأن غالبية من يتعامل مع اللهجة الدارجة لا يعدم الوسيلة لفهم الفصحى إذا ما كانت في مستوي بعيد عن التعقيد والتزمت ناهيك عن المعني اللغوي لكلمة فصحي والذي يدل على الوضوح والإبانة .. تقول معاجم اللغة : الفصاحة - البيان وسلامة الألفاظ من الإبهام- ، والرجل الفصيح هو الذي يحسن البيان ويميز جيد الكلام من رديئة ، ولسان فصيح - طليق يعين صاحبه على إجادة التعبير- ، و أفصح الأمر- أي أوضحه ..

يضاف إلى هذا أن مهمة الشعر الشعبي هي الارتقاء بالناس ورفعهم إلي مستوي اعلي من الوعي والشعور وليس الهبوط بنفسه ليلتقي بهم في المستويات الأقل ويزيدهم هبوطا كلما ازداد هبوط إليهم ، من هذا المنطق فان لغة الشعر العربي تكون قريبة من لغة الشعر الشعبي الحقيقية وهذا يظهر وضوح في حياة العرب طوال

عصوره حيث كان للشعر لغة عامة واحدة هي لهجة قريش التي سميت فيما بعد بالفصحى وأن هذه اللغة المشتركة اتاحت للشعر قبل الإسلام دورانا وانتشارا واسعا حينذاك ، فقد كان يروي وينشد في كل قبيلة وعلى كل لسان مما جعله يطبع بمميزات شعبية كثيرة إذ ترى الجماعات تتناشدة في التراتيل الدينية ، وكانت النساء تنشده في حفلات الأعياد وفي الأعراس وفي الحروب والمآتم ، وكان الرجال يحدون به الإبل في سيرهم ليلا ، وفي كل عمل يقتضي حركة متصلة (في القتال ،وفي السقي من الآبار ..الخ)

هذه اللغة هي التي كانت سائدة بين القبائل العربية ..و كان الشعراء والخطباء والكهان والحكماء يتحدثون بها مرتفعين عن لهجات قبائلهم، وكانت الفوارق بين هذه اللغة أو اللهجة الفصحى ولهجات القبائل المحيطة بقريش ضئيلة بينما كانت تتسع كلما ابتعدنا عن مكة جنوبا أو شرقا أو شمالا ، وقد يبدو غريبا أن يتخذ شعراء القبائل هذه اللهجة لسانا لهم تاركين لهجات قبائلهم الخاصة .. لماذا ..؟ لأنها كانت أداة مشتركة تجتمع الأفئدة عليها .. وكانت المثل الاعلي في البيان والتعبير عن القلوب والعقول

وفي عصر صدر الإسلام كان الشعر ينظم على كل لسان و كان وقودا جزلا للحروب الملتهبة بين المسلمين والكفار .. ومن ثم كانت لغة الشعر ثمرة اللمحة الخاطفة السريعة ..ولمحة استلال السيف ومنازلة العدو، ولذلك كان الشعر فيها لا ينقح لفظا ولا يعني بالتماس صيغة معينة .. كان يلقي البيتين أو الأبيات في سرعة وكأنها نبال يصوبها إلي الأعداء مسرعا، ولذلك كانت تشيع فيها البساطة فلا تكلف ولا محاولة لتكلف ، ومن ثم كان طبيعيا أن يكثر جريانها على الالسنة الأمر الذي يؤكد شعبيتها خاصة وأنها تنظم من بحر الرجز الذي هو كثير الدوران في حداء العرب

وفي عصر بني أمية .. ونتيجة للانقسام الذي حدث فيه كانت الأحزاب وكان لكل حزب شعراؤه الذين يناضلون عنه ، وحدثت تطورات اجتماعية في طبيعة الحياة، ففي مدن الحجاز ساد الغزل وتغني الشعراء بلغة سهلة يسيرة .. فيها ألفاظ عادية مألوفة وفيها عبارات رشيقة ـ خالية من أي عسر ومن أي تعقيد ـ لغة لا يكاد يسمعها الناس حتى تدور في أفواههم وعلى ألسنتهم .. مثلها في ذلك مثل لغتنا المألوفة التي نستخدمها اليوم أو قل كأنها من نفس الأحاديث الشعبية اليومية التي كان يتخاطب بها الناس في المدينة ومكة وبوادي نجد والحجاز، أما في مدن العراق فسادت النقائض والتي كانت

بمثابة ملهاة للناس في سوق المربد بالبصرة وسوق الكناسة بالكوفة حيث كانوا يتحلقون حول المتناقضين للفرجة عليهما وللهو والتسلية ، وليس من شك في أن الشعر الذي كان يتبارى به الشعراء كانت ألفاظه قريبة من أفهام الناس وبسيطة في تداولها .. وإلا بماذا نفسر ما روي في أخبار أبي النجم والعجاج عندما كانا يتناقضان في المربد حيث مضي أبو النجم ينشد نقيضته في العجاج حتى بلغ قوله (شيطانه أنثي وشيطاني ذكر) فتعلق الناس بالشطر وتصايحوا وهرب العجاج خجلا واستحياء وقس على ذلك أمثلة كثيرة تدل في مجملها على أن النقائض كانت تحمل من اللغة ما يجعلها تسري في القبائل العربية سريان البرق أو سرعان ما تحملها الألسنة إلي كل مكان .

وفي العصر العباسي الأول ارتبط الشعر بحياة الناس أكثر وأكثر إذ نجده على ألسنة الموالي كما نجده على ألسنة العرب وخاض في شتي الموضوعات بكل جرأة من خلال لغة سهلة الألفاظ وعذبة ولينة حتى إنها لتقترب قربا شديدا من اللغة اليومية حينئذ كما أن شعراء هذا العصر كانوا يكثرون في أشعارهم من صنع مقطوعات قصيرة حتى يمكن حفظها بسرعة وتداولها بين الناس ومن ثم اتصفت اللغة بالليونة والسهولة والبساطة الأمر الذي جعلها تمس القلوب برفق وبدون أي حجاب .

وفي العصر العباسي الثاني تعددت الموضوعات والأغراض لكن اللغة كما هي .. فصيحة فصاحة مبسطة يشترك فيها كثير من أفراد الشعب .. كلماتها وألفاظها تدور على ألسنة الجميع ومن ثم كان الشعر العربي في تلك الفترة مرآة ناصعة نقية لروح الشعب يعرضها بجميع انطباعاته الشعبية في سهولة تصور إن تلك اللغة هي صورة من اللغة الشعبية لذلك العصر .

وفي عصر الدول والأمارات حملت الأشعار لغة فصحي لم ترتفع عن مستوي الشعب بل كانت تقترب منه قربا شديدا ولعله من أكبر الأدلة علي ذلك أننا نجد لهذا العصر في كل بلد عربي شعراء أميين لا يقرأون ولا يكتبون ويشاركون مشاركة خصبة في الشعر العربي غير واجدين في ذلك أي مشقة أو أي عسر ، ففي العراق كان الشعراء الجوالون يستخدمون لغة أشبه بلغة الحياة اليومية ، وفي مصر لم تكن هناك حواجز بين لغة الشعر ولغة القاهرة ، وفي نجد واليمن وحضرموت وعمان والبحرين منذ القرن السادس الهجري شاع شعر حميني في اليمن وحضرموت، وشعر نبطي في بقية الأقاليم غير أن سيل الشعر الفصيح ظل قويا فيها جميعا .

أما في بلاد المغرب والأندلس فكان الشعراء الجوالون أيضا يطوفون البلدان ليتكسبوا (وهؤلاء هم أهل الكدية والشحاذة الأدبية) مما يدل على تعلق الناس بالشعر الفصيح وأصحابه ، وفوق هذا وذاك ، فقد كانت هناك محاولات لتبسيط الشعر العربي وإخضاعه لمقتضيات الغنائية والشعبية تجري في أقصي المشرق(في العراق) وفي أقصي المغرب (في الأندلس) الأمر الذي افرز عدة فنون جديدة اشتهرت بشعبيتها هي الموشحات والمواليا والزجل والدوبيت والكان كان والقوما ... الخ تميزت ببساطة وسهولة الألفاظ.

يقول ابن خلدون (وتبع أهل بغداد أهل مصر القاهرة حيث أتوا بالغرائب وتبحروا فيها في أساليب البلاغة بمقتضي لغتهم الحضرية فجاءوا بالعجائب)(٥) المهم أنه عبر كل هذه العصور تميزت لغة الشعر العربي بأنها لغة فصحي مبسطة يقرأها القاصي والداني- المثقف والأمي – الرسمي والشعبي .. ومن ثم فلغة الشعر الشعبي تكاد تقترب من لغة الشعر الرسمي خصوصا وأنها (لغة فصحي سهلة ميسرة بحيث تكاد تقتنع كل لهجة أنها منها أو ببساطة وبسر يمكنها أن تخضعها للكنتها دون أن تشعر بأنها قامت بعملية ترجمة واضحة .. لغة راعت السهولة في إنشائها وامكان إعطالها في القراءة بحيث أصبح كل فرد يحس بها كما لو كانت لهجته المحلية الخاصة وبحيث احتفظت بكيانها في كل وقت وفي كل زمن فلم يؤثر عليها التحول من عصر إلي عصر، ولا ما يطرأ على اللهجات من تطورات (٦) ومن هنا يؤكد ابن خلدون أن الأمصار على عهده شرعت تكتب الشعر بلغة عصرها في جميع الأغراض الشعرية التي كانت ذائعة باللغة الفصيحة قبل أن تفسد ملكة اللسان المضريّ (٧)

أما ابن عبد ربه فيعلق على قول ابن عباس (الشعر علم العرب وديوانها فتعلموه وعليكم بشعر الحجاز) بقوله فأحسبه ذهب إلي شعر الحجاز وحضّ عليه إذ أن لغتهم أوسط اللغات(٨)

ثانيا :- التداول الانتشار

وهذه قضية أخري من قضايا الحكم على شعبية النص الأدبي حيث أن ذيوع النص وانتشاره بين أفراد المجتمع لدليل غنى شعبيته .. وفي الشعر العربي على مدي عصوره تتضح الظاهرة بصورة جلية . .

ففي عصر ما قبل الإسلام توجد شواهد تدل على مدي أحساس العرب بانتشار ما كانوا ينظمونه من الفصحى في القبائل العربية وشيوعه بين أبنائها في كل مكان ... يقول المسيب بن علس :-

فلأهدين مع الرياح قصيدة　　مني مغلغلة إلي القعقاع

ترد المياه فما تزال غريبة　　في القوم بين تمثل وسماع

فقصيدته إلي القعقاع تطير إلي الجزيرة طيران الرياح متغلغلة سالكة إلي الناس سبلا قريبة وبعيدة ، وما تزال متنقلة من ماء إلي ماء ومن حي إلي حي ، والناس منهم من يستمع إليها معجبا ومنهم من لا يزال يرددها وينشدها مرة بعد مرة ....

كما نري شاعراً آخر يهجو عشيرته ثم يندم ندماً شديداً لأن هجاءه ذاعت أبياته في العرب ولم يكن من الممكن له أن يرجع ذمه وهجاءه لها فيقول :-

ندمت على شتم العشيرة بعدما　　مضت واستتبت للرواة مذاهبه

فأصبحت لا أستطيع دفعالمامضي　　كمالايرد الدر في الضرع حالبه

إذاً فالشعر الذي ينشده الشاعر ينتشر بين القبائل ولا يمكنه أن يرده ، كما لا يمكنه رد اللبن بعد حلبه إلي ضرعه إذ سرعان ما يتلقفه أبناء القبائل عن الشاعر وسرعان ما ينشرونه ويشيعونه في كل مكان .

هذا .. وكان مما يساعد علي انتشار الشعر وشيوعه أن ينشده أصحابه في أسواق العرب التي كان يجتمع فيها كثيرون من أرجاء الجزيرة العربية حيث كانوا يعودون محملين بقصائد من ذاعت شهرته ودوي صيته ، ومن ثم فكان ينشد في شرق الجزيرة ما كان ينظم في غربها ، وبالمثل ما ينظم في شرقها ينشد في غربها ، وقل ذلك بالقياس إلي كل قبيلة في الشمال والجنوب ، فليس هناك شعر خاص ببيئة دون بيئة بل الشعر كله عام للجزيرة تشترك فيه شركة كبري ولعل هذه الشركة هي التي جعلت الشعر في ذلك الوقت يدور حول معان واحده ، فما يقوله طرفه في البحرين في الناقة أو في الفتوة يصبح عملة متداولة بين الشعراء ، وبالمثل ما يقوله امرؤ القيس علي مقربة من تيماء بالحجاز يتناقله بين الشعراء سواء وصفه للفرس أو للغيث أو لمغامراته مع المرأة وهكذا .

وفي عصر صدر الإسلام .. كانت الأشعار تتطاير مع كل معركة علي لسان كل جندي مجاهد في سبيل الله فهذا عمير بن الحمام الأنصاري يقتل في سبيل الله وهو يقول :

ركضاً إلي الله بغير زاد　　إلا التقي وعمل المعاد

والصبر في الله علي الجهاد وكل زاد عرضة النفاد

غير التقي والبر والرشاد

فتحول كل شخص بعده في أصحاب رسول الله إلي ما يشبه عمير بن الحمام فهو يقاتل الفئة الكثيرة ويستبسل طاعناً بسيفه في صدور المشركين .

ومع أخبار الفتوح يطالعنا شعر كان ينظم من بحر الرجز كان كثير الدوران علي كل الألسنة ، حيث كان يتغنى به تمجيداً لبسالة المجاهدين ، وكان المجاهدون أنفسهم ينظمون أشعاراً لا تكاد تحصي في جميع الميادين شرقاً وشمالاً وغرباً (في العراق وفي إيران وفي الشام وفي مصر) وكانت أخبار معاركهم دائماً تطير من خلال ذلك الشعر بين سائر أرجاء الجزيرة العربية الأمر الذي يفسر لنا سيرورة وانتشار الشعر العربي وجريانه علي ألسنه الجنود المحاربين في مقطوعاتهم التي كانوا دائماً يرددونها، ومن ثم شعبيه هذا الشعر في تلك الحقبة من التاريخ .

وفي عصر بني أمية .. ومع جماهيرية فن النقائض وسيرورته بين الشعب أنتجت حرب الخوارج مقطوعات حماسية تداولها الناس وأصبحت جارية علي كل لسان ثم شعر الغزل وما تميز به من رقة وعذوبة نال ما نال من الذيوع والانتشار .. فهذا جرير والفرزدق والأخطل والكميت وعمر بن أبي ربيعه والعرجي وابن قيس الرقيات والأحوص وغيرهم نظموا قصاندهم سواء لأحزاب الجماهير أو لحزب الدولة بصورة أشبه ما تكون بالصحف ووسائل الأعلام في عصرنا من حيث السيرورة والانتشار ليس في الألفاظ فقط وإنما في المضمون والموسيقى أيضا الأمر الذي أوصل شهرتها وذيوعها إلي أسماع كل من في الحجاز والعراق والشام .

وفي العصر العباسي الأول ..نلحظ أن الشعر ساد وعَم علي كل لسان ليس فقط من كانت أصولهم عربية ، بل أيضاً من هم من أصول أجنبية .

فالمنحدرون من أصول أجنبية أخذوا يشكّلون جمهوراً كبيراً وواسعاً من ناظمي الشعر وحاز كثير منهم قصب السبق فيه .. من أمثال بشار بن برد وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبّان بن عبد الحميد وأبي عطاء السكندري ومن ثم أصبحت رواية ونظم الشعر شائعة بين الأوساط ... هذا من جانب .

ومن جانب أخر نجد ما تعالت به أصوات الشعراء وهلل به الشعب من نظم دار حول الانتصارات الإسلامية ووصف ومدح لبسالة وشجاعة قواد الجيوش ، ومن تغني بغزل فاق في رقته حياة العشاق .. وغير ذلك مما شاع وذاع صيته في موضوعات مختلفة

مرة بقصاند مطولة في صورة ملاحم شعرية ، ومرة في مقطوعات قصيرة وجميعها يدور علي الألسنة وقريب الصلة بحياة الشعب .

وفي العصر العباسي الثاني .. يحتدم انتشار الشعر بين أوساط الشعب .. ما بين واصف للمعارك الحربية ، ومصور للبطولة العربية ، ومنشط للهجاء في تصوير مثالب الحكم والحكام ومساوئ المجتمع وأفراده في صورة كاريكاتورية ساخرة ، وكذا الرثاء ما بين اجتماعي وسياسي والغزل ما بين صريح وعنيف، وأيضاً شعر الزهد والتصوف الأمر الذي أفرز أشعاراً كثيرة ذاعت في الناس بكل وسيلة علي لسان البحتري وابن المعتز وابن بسام الرومي وغيرهم ممن يعدون لسان حال الشعب ومن ثم صدرت عن روح الشعب وكانت بمثابة الغذاء الروحي الذي يحمل انطباعاته الشعبية .

وفي عصر الدول والأمارات ..يكثر الشعر كثرة مفرطة .. حتى لدرجة أنه لم يبق مناسبة إلا وشاع الشعر وأنشد في قصاند طنانة .. نستشعر منها القومية العربية مرة . ونستشعر منها المقاومة الشعبية مرة ثانية ، ثم المدائح النبوية وشعر العشاق مرة ثالثة وكل ذلك سار وشاع بين الناس حيث كان يتغنى به المغنون والمغنيات فيشيعونه علي الألسنة أو يدور به الشعراء الجوالون أو المادحون في جميع الأوساط المصرية والشامية والعراقية بل والاندلسية .

وبالطبع كان هذا بجانب روح الفكاهة والدعابة التي انطلقت أسرابها من مصر وحطت رحالها في الشام والعراق مخاطبة القلوب والأفئدة بأسلوب فكه وانتشر وذاع في الشعر العربي آنذاك ومن ثم يعتبر ابن سودون وابن نباته وغيرهما من أشهر ممن نظم الشعر في خفة روح وفكاهة ودعابة ..هذا من ناحية ...

ومن ناحية أخري فإن ظاهرة ذيوع وانتشار الشعر العربي مثلما كانت في بلاد المشرق العربي واضحة فإنها أيضاً سادت المدن العربية في الأندلس حتى لدرجة أن نظم القصاند كان يلهب الثورات ويشعلها ولعل من أكبر الثورات التي حدثت بسبب ما أنشده الناس من شعر ثورة أهل غرناطة علي اليهود بسبب ما نظمه أبو إسحاق الالبيري حين قال مغتاظاً من ابن النغرلة وزير الصنهاجيين بتوليته طائفة من اليهود علي أعماله:-

ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الزمان وأسد العرين

لقد زل سيدكم زلة تقر بها أعين الشامتين

تخير كاتبه كافراً ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا وتاهوا وكانوا من الأرزلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى فحان الهلاك وما يشعرون

وشاعت القصيدة علي كل لسان وثارت غرناطة وصنهاجة علي ابن النغرلة اليهودي فقتلوه ... وكان الناس يرددون هذه الأبيات في ثورتهم ويهتفون بها ويصيحون وكأنما جاءت هذه الأبيات من قلوبهم ومشاعرهم لما عبرت عن ذلك الغضب والسخط الشديدين .

أيضاً شاع الشعر الغزلي وغير الغزلي بين أهل الأندلس ولعل السبب في ذلك راجع إلي نهضة الغناء هناك لا في الأعياد فحسب بل في المواسم وعلي مدار الليالي والأيام .

وعلي كل ذلك يتضح لنا أن الشعر العربي وعلي مر عصوره وباختلاف أماكن إنتاجه وتعدد أساليب عرضه تميز بالانتشار والتداول بين الناس وفي بطون الكتب التي حملت تاريخا لتلك الفترات وهذه الأماكن الأمر الذي يثبت وجود معيار الشعبية في الشعر العربي بصورة واضحة .

ولعل للجاحظ راية الحاسم الذي يؤيدنا في هذا حين قال(فكم من بيت شعر قد سار وأجود منه مقيم في بطون الدفاتر لا تزيده الأيام إلا خمولا ، كما لا تزيد الذي دونه إلا شهرة ورفعة ، وكم من مثل طار به الحظ حتى عرفته الإماء ورواه الصبيان والنساء وكذلك حظوظ الفرسان ، وقد عرفت شهرة عنترة في العامة ونباهة عمرو بن معدي كرب وضرب الناس المثل بعبيد الله بن الحر وهم لا يعرفون بل لم يسمعوا قط بعتيبة بن الحارث بن شهاب ولا ببساط بن قيس وكان عامر بن الطفيل أذكر منهما نسبا ويذكرون عبيد الله بن الحر ولا يعرفون شعبة بن زهير ولا زهير بن ذؤيب ولا عباد بن الحصين ويذكرون اللسن والبيان والخطيب ابن القرية ولا يعرفون سحبان وائل والعامة لم تذكر هؤلاء دون اولئك فتركت تحصيل الامور والموازنة بين الرجال وحكمت بالسابق إلي القلب على قدر طباع القلب وهيبته ثم استوت علل العامة في ذلك وتشابهت) (٩)

ثالثا :- الوجدان الجمعي العام

سبق أن ذكرنا أن كلمة شعب تعني مجموع الناس في الأمة على اختلاف طوائفهم ودرجاتهم وانتماءاتهم المكانية والزمانية ، ومن ثم فان أي أدب يتناول(أي موضوع له اتصال مباشر بالشعب ويرتقي فوق عاملي المكان والزمان فينتشر في جميع بقاع الأمة بنفس الدرجة ويبقي علي مر العصور بنفس المستوي وينتقل من جيل إلي جيل ميراثا مقدسا وتراثا خالدا) (١٠) يعد أدبا شعبيا ، كما أن الأدب الذي يمس المشاعر الإنسانية العامة ونري فيه صور أنفسنا وقضايا عصرنا يعد أيضا أدبا شعبيا .

والشعر كجنس أدبي إذا كان عاما في موضوع يمس كل أفراد الأمة وخاصا بحيث يحس كل فرد بأنه موضوعه الشخصي الذي يهمه وحده أو قبل أي شخص آخر .. كان شعراً يحمل دلالات ومضامين شعبية .

والشعر العربي علي مر عصوره إذا بحثنا في موضوعاته ومضامينه لوجدنا أنه دائما كان يمس الوجدان الجمعي العام ويشد انتباه كل عضو في المجتمع ويؤثر علي مشاعر كل شخص علي طول المدى .

ففي عصر ما قبل الإسلام .. نجد أن الشعر كان يصدر عن جميع أفراد الشعب في الجزيرة لا فرق بين رجل وامراة ولا بين شاب وشيخ ولا بين سيد وصعلوك .. كان يصور خواطر الناس وكل ما تنبض به قلوبهم في السلم وفي الحرب ..، ومن المحقق أن الشاعر في ذلك الوقت كان لسان قبيلته يسجل مآثرها ويتغنى بمفاخرها وأمجادها وعلي رأسها الأمجاد الحربية ، وكأنما كان بوقا لها يعبر عن أهوائها وكل ما يجول في خواطرها ، وعلي هذا النحو كان الشاعر أكثر تعبيراً عن قبيلته من نفسه ، بل لعله لم يكن يعنيه أمر نفسه في شئ ، حتى في الغزل والحب كان يصور مشاعر الجماعة رغم ما كان يميز الشعر في تلك الفترة من أنه(شعر ذاتي يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثي أو حين يعتذر ويعتب أو حين يصف أي شئ)(١١)، وعليه فان الشعر العربي سواء كان معبرا عن الجماعة أو الفرد فانه في جميع الأحوال يعبر عن الوجدان الجمعي العام وبالطبع هذه سمة الشعبية في الشعر العربي

وفي عصر صدر الإسلام .. كان الشعر تعبيراً جماعياً في مكة والمدينة .. فالشاعر يتغنى فيه بمشاعر المسلمين الروحية ومشاعر الشعب كله فقد دخل العرب جميعاً في دين الله ولم يكن الشعر الديني وشعر الجهاد في سبيل الله وحدهما الشعر الذي يعبر عن روح الجماعة وانطباعاتها الشعبية .. فحتى المديح أيضاً يعبر عن رأى الجماعة الإسلامية في الممدوح ، ولعل هذا يتضح لنا جلياً فيما قاله حسان بن ثابت في الرسول (صلي الله عليه وسلم)وأبي بكر حيث المديح الجماعي وبالمثل أيضاً الرثاء يحمل نفس المضمون الجماعي والذي هو بلا شك صادر عن وجدان جمعي عام وحيث نري ما قيل في عمر بن الخطاب بعد مقتله ما يؤيد ذلك خاصة في الرؤية لموازين العدالة في عهده ..

وفي عصر بني أمية ..كان الشعراء وأمثالهم من المنتمين للأحزاب السياسية لا يعيشون لأنفسهم وإنما لجماهير أحزابهم فعنها يتكلمون ولها ينظمون وباسمها يصيحون في وجوه الأحزاب الأخرى مجاهدين دائماً بألسنتهم ومجاهدين أحياناً مع ألسنتهم بسيوفهم علي نحو ما كان يجاهد الخوارج ، وكان يقاتل هذه الأحزاب جميعاً حزب الدولة وكان جمهور شعرائه ضخماً وكانت الدولة تنثر أموالها عليهم نثراً ، ينثرها الخلفاء والولاة، ثم كان شعر النقائض الذي كان ملهاة للناس تزجي من خلاله أوقات فراغهم بالفكاهات والسخريات المثيرة للضحك ومن ثم تعلقت الجماهير به وانتظرت سماعه بين الحين والحين ، وأيضا شعر الغزل والحب الذي كان يلامس القلوب ويترجم مشاعرها الإنسانية بصورة عميقة ومتسعة وأكثر تاثيراً في الناس .

وعليه .. كان الشعر هو الأداة المعبرة عن الحياة الشعبية وأحاسيس الناس رجالاً ونساء ورقيقاً وأحراراً كان هو الصيحة الشعبية المتداولة في كل الأوساط .. ليس في عصر بني أميه فقط بل في العصر الإسلامي كله .

وفي العصر العباسي الأول ..كان الشعر أكثر اتصالا بعواطف الناس وأهوائهم حتى لدرجة أننا نلحظ أن أكثر شعراء الشعب كانوا من أبناء الطبقة العامة العاملة خصوصا الأعلام أمثال بشار بن برد وأبي نواس وأبي تمام ومسلم بن الوليد الذين نبتوا بلا شك في الطبقة الدنيا من طبقات الشعب ، فتاريخ بشار يشهد بأن أباه كان يضرب حجارة الطين ، وأم أبا نواس التي قامت بتربيته كانت غازلة للصوف ، وأبا العتاهية كان أبوه يعمل حجاما وأخوه يحترف بيع الجرار والفخار، وكان الوليد أبو مسلم يعمل حائكا ، وأبو تمام كان أبوه صاحب حانوت عطارة . .هذا من جانب

ومن جانب أخر .. كانت الموضوعات والأغراض التي تناولها الشعر ليست ببعيدة عن الشعب فالمديح والهجاء اللذان كانا غالبا ما يمسان الطبقة العليا نجدهما ذواتا اتصال وثيق بالشعب وقضاياه، فالمدح لم يكن رياء ونفاقا . كما ذهب البعض أو كما شاع طيلة الفترة السابقة وعلق بأذهان الجميع ، وإنما كان مدحا لمثالية الحاكم التي يتمناها الشعب حيث المثل العليا في الحكم وما ينبغي أن يسود من العدل والخلق الكريم ، ومن ثم لم يكن المدح رياء ولا نفاقا ولا لغوا من اللغو حتى وان كان مدفوع الأجر .. كان المدح تجسيدا لأداة الحكم الصالح وما ينبغي إن ينحي عنه من صور الفساد ، كما كان تجسيما للفضائل التي يريدها الشعب في حكامه وقادته ، ولذلك دخل في تربية الناشئة وعد نبراسا للشمائل الكريمة ، وكان من حين إلي حين يحمل بعض مطالب الشعب سواء غلاء الأسعار أو الرفق باليتامى والأرامل وحياتهم البائسة

ثم إن المدح للقواد في الحروب لم يكن إلا تسجيلا للانتصارات وبشارة للشعب لما ابلي في تلك الحروب من بطولات نادرة ، ومن ثم كان الشعر بمثابة وسيلة إعلام تحمل تلك الأنباء إلي الشعب الذي كان لا يزال ينتظرها في شوق ولهفة .

ولم يكن الهجاء أقل تمثيلا لحياة الشعب من المدح أو هو في حقيقته تصوير لعيوب المجتمع وما بأفراده من صفات سيئة وما بحكامه وحكمهم من انحراف .. ولعلنا لو تحرينا ما قاله الشعراء في الحكام لوضح أمامنا أنهم أرادوا تعديل نهجهم إلي النهج السليم في السلوك والسياسة والحكم

وعلى نحو ما كان المدح والهجاء .. كان الرثاء خاصة ما كان يدور حول فجيعة الشعب في بطل من أبطاله وما يقال في ذلك من تجميد لاولئك الذين يضحون بأرواحهم فداء لشعبهم .. أما الغزل فكان يغذي الأرواح بغذائه الإنساني ،

ولم يكن الزهد خارجا عن الحلبة بل تغني به الشعراء مصورين موجه الضيق والضنك التي كان يحياها الشعب ومن ثم الدعوة الجادة لحياة الزهد والشظف والتقشف وبالمثل كان الشعراء يصورون حياة الطبقات الكادحة البائسة وما كانت تعيش فيه من فقر شديد وجوع ومسغبة .

وفي العصر العباسي الثاني لم تختلف الصورة عن العصر العباسي الأول من حيث تعبير الشعر عن مضامين وأهداف الوجدان الجمعي العام ..

فالمدح لم يكن القصد من ورائه إلا كشف فساد الحياة السياسية وما كان يصب على رؤوس الشعب من مظالم جائرة

والهجاء يهدف إلي تصوير مثالب الحكم والحكام ومساوي المجتمع وأفراده مدعوما بالسخرية الكاريكاتورية

والرثاء والغزل والزهد كلها تدور حول نفس المغزى الأمر الذي يفسر لنا دوران الشعر العربي حول جانب مسه للمشاعر العامة وتعبيره عن اولئك البائسين وغيرهم

وفي عصر الدول والأمارات.. حملت القصائد الشعرية نفس مضامين ما كان يجري آنذاك من أحداث ، وفي نفس الوقت حملت رأي الشعب تجاه كل قضية حيث الثورة على ظلم الحكام الفاسدين ، وحيث عرض صور البؤس والضيق والضنك التي كان يعيشها الشعب آنذاك ، وحيث فكرة القومية العربية والتغني بأمل وحدة العرب في مواجهة الأعداء ، وحيث شعر الغزل والرثاء والشعر الصوفي والشعر الفكاهي والتي كلها تحمل روح الشعب وتعبر عن أماله وآلامه .

رابعا :- التأليف

يذهب رجالات الدراسات الشعبية إلى عامل مهم من عوامل الحكم على شعبية النص الأدبي ألا وهو التأليف .. فمنهم من يري أن مجهولية المؤلف دليل قوي على إدخال النص بوتقة الشعبية ، ومنهم من يري أن مجهولية المؤلف ليست دليلا على ذلك ..

ونحن هنا لن نحاول عرض وجهات النظر بقدر ما نحاول الوصول إلي الرؤية الصحيحة التي على أساسها نقبل تحكيم عامل التأليف كأحد العوامل المهمة في إثبات شعبية النص من عدمه ، وبناء على ذلك ، وعند النظر في الدراسات التي تناولت هذا الموضع نلحظ أن مجهولية المؤلف تحظي بنسبة كبيرة من التأييد خصوصا وأن الجهل بالمؤلف (من وجه نظرهم) سوف يساعد على سرعة الانتشار والذيوع ، ومن ثم تتحقق شعبية النص،وهذا يتضمن الأساطير والقصص والأمثلة والأغاني والألغاز والنوادر والبكائيات أي انه سيكون بذلك ملكا للشعب ، أما المعرفة بالمؤلف فسوف تفقده هذه الخاصية ، ومن ثم تخرجه من دائرة الشعبية وتلحقه بالرسمية .

أما الجانب الأخر فيري أن المعرفة بالمؤلف ليست دليلا مقنعا للحكم على عدم شعبية النص ، ومن ثم إخراجه من دائرة الضوء ذلك لأن الكثير من عيون الأدب الشعبي العالمي معروف القائل ويكفي لذلك دليلا الإلياذة والأوديسة للشاعر اليوناني هوميروس ، وفي الأدب العربي مجموعة سيرنا الشعبية كمثال سيرة عنترة التي تقول

الروايات أنها من تأليف يوسف بن إسماعيل في حين (تذكر السيرة في طبعتها الحجازية) أنها من تأليف ابن قريب الأصمعي ٠

كذلك نجد كثيرا من المجموعات الشعرية تخرج من دائرة الشعبية رغم أنها مجهولة (القائل) مثل ديوان الحماسة لأبي تمام حيث تطالعنا قطع شعرية كثيرة يوردها أبو تمام دون أن يذكر أصحابها ويكتفي بأن يعنونها (بقال أعرابي أو قال آخر)، ومثل هذا نجد الكثير في المفضليات والأصمعيات والجمهرة وغيرها من كتب الشعر العربي ٠

جانب أخر يعد في غاية الأهمية بالنسبة للتأليف ألا هو الفردية والجماعية في التأليف .. وهنا يري سوكولوف في كتابه علم الفولكلور ـ قضاياه وتاريخه ـ انه من المستحيل إنكار دور الفرد المبدع في الأدب الشعبي ، وأن مجهولية المؤلف لا تعني بأي حال من الأحوال نفي شخصيته أو حجبها (١٢) ، أما الدكتور / محمود ذهني فيقول إننا اذاعرفنا شخصية المؤلف ثبتت لنا فرديته ولم يحدث أن التقينا بعمل شعبي ـ عربيا كان أو أجنبيا ـ من تأليف عدد من الأشخاص أو بالتحديد اشترك في تأليفه أكثر من مؤلف واحد ، ولكن هناك نقطة يلزم الوقوف عندها ألا وهي الفرق بين إنشاء العمل الأدبي الشعبي وانتشاره أو سيرورته فالذي نعنيه بوحدة المؤلف في الأدب الشعبي هو أن صاحب الانبثاقة الأولي فيه شخص فرد ولكن مجرد استحواذ هذا العمل على مقومات الأدب الشعبي يدفع به إلي السيرورة والانتشار(١٣)

ومن هنا فان قضية التأليف سواء من حيث مجهولية المؤلف أو معرفته ، أو من حيث فرديته أو جماعيته يمكن أن تحسم في التراثية والتداول أي الانتشار والخلود .. فليس المهم معرفة اسم المؤلف أو الجهل به وليس المهم أن الفرد هو الذي ألف أو الجماعة وإنما المهم هو ذوبان قضية التأليف في انتشار النص وخلوده على مر الزمن ثم بعد ذلك يأتي دور المضمون الذي يفصل في القضية فصلا نهائيا أي جريان هذه المضمون في الشعور الجمعي العام ..

ومن هنا يتضح لنا أن مسالة التأليف بمفردها من وجهة نظرنا ليست محكا أساسيا في الحكم على شعبية النص من عدمه وإنما التأليف بجانب الانتشار والخلود والوجدان الجمعي العام واللغة .. كل ذلك يشترك في إثبات شعبية النص بصورة متكاملة أما القول بان النص الشعبي يشترط فيه مجهولية المؤلف فهذا قول مردود وعليه وعند البحث في تاريخ الأدب العربي عن النصوص الشعرية وبيان مدى قربها من الشعبية نجد أنه في عصر ما قبل الإسلام نظم الأفراد القصائد فتغنت بها

الجماعات من مثل التراتيل الدينية أثناء الطواف والحج وتغنت النساء بالشعر الجماعي في حفلات الأعياد والأعراس رغم أن معظم هؤلاء الشعراء معروفون وبعضهم غير معروف لكن أشعارهم في النهاية قد نجد فيها سمات الشعبية

فمثلا يقول عروة بن الورد :-

أني امرؤ عافي إناني شركة وأنت امرؤ عافي إنانك واحد

افرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

وفي عصر صدر الإسلام ذابت شخصية المؤلف المعروفة(القائل) في المضمون المعبر عن أفكار الجماعة بصفة عامة ومن ثم رأينا في النصوص سمات الشعبية وذلك من مثل قول لبيد :-

ألا كل شئ ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

حيث ساد المضمون الديني المستوحي من القرآن الكريم وعاش على مدي الدهر مع ذوبان اسم (لبيد) في استشهادات الرواة والدارسين بعد ذلك بعبارة (قال الشاعر) الأمر الذي أفرز لنا قضية الانتحال في الشعر العربي وما قيل حولها من آراء والتي هي من وجهة نظرنا سببها شعبية النص وتعبيره عن الوجدان الجمعي العام ، ومن ثم تضاربت الآراء حول المؤلف (القائل) ونسبت النصوص لغير قائليها مرة أو أبهمت الأسماء وضاعت مع رسوخ شعبية النص .

وفي عصر بني أمية .. كانت النصوص الشعرية معروفة القائل لكنها منتشرة ومتداولة بين الناس ثم امتد بها الزمن حتى وصلتنا الآن ، ومن ثم فليس هناك من سبب في ذلك سوى أنها اجتذبت مشاعر الناس فصفقوا وهللوا لها وحملتها ألسنتهم إلي كل مكان ولعل في النقائض بين الفرزدق وجرير والأخطل ما يؤيد كلامنا رغم أنها دارت حول الهجاء وكانت ومعرفة القائل .. وبالطبع يصدق القول علي الغزل والرثاء .. الخ ..

وفي العصر العباسي الأول ..أ كانت القصائد لشعراء معروفين من أمثال بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد وغيرهم لكنها منتشرة وذائعة في جميع الأوساط وكل الأزمنة فمن منا لم يجلجل في سمعه قول أبو تمام في ملحمته الرائعة : -

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لاسود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

فالسبب في ذلك راجع إلي تصويره لفرحة الشاعر بالنصر ومن ثم كان بالنسبة لهم مراسلا حربياً يصف لهم المعارك ويزف إليهم البشري التي ينتظرونها في لهف وشوق

أي أنه عبر عن مشاعر الجماعة فعاشت تلك القصيدة بين الناس في كل زمان ومكان .. ومن ثم لم يكن لعامل التأليف دور في إلحاق النص بالشعبية أو الرسمية وفي العصر العباسي الثاني ..تبرز أسماء الشعراء واضحة جلية ومقترنة بالقصائد التي كانوا ينظمونها ، لكنها رغم ذلك تحمل الطابع الشعبي من عدة اتجاهات . رغم تنوع الموضوعات ما بين مدح ووصف وغزل وهجاء وزهد إلا أنها في النهاية كانت تعبر عن الوجدان الجمعي العام بلغة سهلة بعيدة عن التعقيد ومن ثم كانت متداولة ومنتشرة علي كل الألسنة مما ساعدها على أن تبقى خالدة بين الناس ، فمثلاً يقول البحتري في قصيدته السينية التي لا يغفل عنها أحد :-

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

أنها المعاني الإنسانية التي تمس كل وتر وجداني في المشاعر الإنسانية العامة .

وفي عصر الدول والأمارات ..برز مجموعة من الشعراء أمثال المتنبي ، وأبي المظفر الأبيوري ، وتقي الدين القنوخي ، وغيرهم ، وطارت شهرتهم مع شعرهم في الآفاق .. وكذلك ظهر الشعراء الجوالون في البلدان العربية شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وكانوا معروفين ومشهورين وفي نفس الوقت كان شعرهم منتشراً ومتداولاً ومعبراً عن الوجدان الجمعي العام .. وكذا الحال في بلاد المغرب والأندلس ..

خامساً :- التراثية والخلود

وهذا عامل أساسي من عوامل الحكم علي شعبية النص، فالتراثية يقصد بها قدم النص ، أو بمعني آخر مدي توافر عوامل البقاء والاستمرارية في النص .. فإذا توافر ذلك في النص الأدبي أمكننا الحكم عليه بالشعبية وهذا ما يمكن أن يصطلح عليه بالانتشار الزماني والذي هو عكس الانتشار المكاني ..

ولو تجولنا عبر دروب الشعر العربي لعثرنا علي كثير من النصوص تؤيد ما نذهب إليه ففي عصر ما قبل الإسلام يقول عنترة بن شداد :-

أثني علي بما علمت فإنني سمح مخالقتي إذ الم أظلم

فإذا ظلمت فإن ظلمني باسل مر مذاقه كطعـــم العلقم

يقصد مخاطباً عبلة ابنة عمه بأن تثني عليه وتمدحه بما فيه من خصال كريمة إذا لم يقع عليه ظلم فإذا وقع – أي ظلمه ظالم – فإن طعم الظلم سيكون مرا وأن

العاقبة والمردود علي هذا الظالم ستكون وخيمة ، ولعلنا نلحظ أن هذه صفات العربي عامة والذي يتصف بالبطولة بصفه خاصة ومن ثم فالأبيات حفظت لنا المدلول العام بألفاظ ومعاني بصورة فيها البقاء والاستمرارية علي مر الزمن .

وفي عصر صدر الإسلام ..نجد عامر بن الأكوع يحدو قائلاً :-

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
إنا إذا قوم بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينا
فأنزلن سكينة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا

هنا نجد أن من عوامل البقاء سهولة الألفاظ وسمو المعاني وبساطة البحر العروضي (الرجز) الأمر الذي جعله سهلاً علي الألسنة ، ومن ثم تناقل عبر الأزمنة فكتب له الاستمرارية والبقاء.

وفي عصر بني أمية نجد وضاح اليمن(١٤) الذي عرف بحسن الإنشاد وخفة الشعر بصورة جعلت شعره يتداوله الناس مكانياً وزمانياً فيقول :-

عجب الناس وقالوا	شعر وضاح اليماني
أنما شعري قند	قد خلط بجلجلان(١٥)

وفي العصر العباسي نجد شعر أبي نواس الذي مازلنا نتغنى به في أيامنا هذه خصوصاً في أيام الحج وهو يلبي ويحدو بشعر يطرب فيقول :- (١٦)

إلهنا ما أعدلك	مليك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك	لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك	والليل لمّا أن حلك
والسابحات في الفلك	علي مجارى المنسلك
ما خاب عبد أمّلك	أنت له حيث سلك
لولاك يارب هلك	كل نبي وملك
وكل من أهل لك	سبح أولبي فلك
يا مخطنا ما أغفلك	عجّل وبادر أجلك
وأختم بخير عملك	لبيك أن الملك لك
والحمد والنعمة لك	والعز لا شريك لك

ألم يكن هذا الشعر قائماً بيننا الآن .. تغني به المطربون .. أنها التراثية والخلود التي تثبت شعبية النص الأدبي .

العاقبة والمردود علي هذا الظالم ستكون وخيمة ، ولعلنا نلحظ أن هذه صفات العربي عامة والذي يتصف بالبطولة بصفه خاصة ومن ثم فالأبيات حفظت لنا المدلول العام بألفاظ ومعاني بصورة فيها البقاء والاستمرارية علي مر الزمن .

وفي عصر صدر الإسلام ..نجد عامر بن الأكوع يحدو قائلاً :-

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

إنا إذا قوم بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

هنا نجد أن من عوامل البقاء سهولة الألفاظ وسمو المعاني وبساطة البحر العروضي (الرجز) الأمر الذي جعله سهلاً علي الألسنة ، ومن ثم تناقل عبر الأزمنة فكتب له الاستمرارية والبقاء.

وفي عصر بني أمية نجد وضاح اليمن(١٤) الذي عرف بحسن الإنشاد وخفة الشعر بصورة جعلت شعره يتداوله الناس مكانياً وزمانياً فيقول :-

عجب الناس وقالوا شعر وضاح اليماني

أنما شعري قند قد خلط بجلجلان(١٥)

وفي العصر العباسي نجد شعر أبي نواس الذي مازلنا نتغنى به في أيامنا هذه خصوصا في أيام الحج وهو يلبي ويحدو بشعر يطرب فيقول :- (١٦)

إلهنا ما أعدلك مليك كل من ملك

لبيك قد لبيت لك لبيك إن الحمد لك

والملك لا شريك لك والليل لمّا أن حلك

والسابحات في الفلك علي مجارى المنسلك

ما خاب عبد أمّلك أنت له حيث سلك

لولاك يارب هلك كل نبي وملك

وكل من أهل لك سبح أولبي فلك

يا مخطنا ما أغفلك عجّل وبادر أجلك

وأختم بخير عملك لبيك أن الملك لك

والحمد والنعمة لك والعز لا شريك لك

ألم يكن هذا الشعر قائماً بيننا الآن .. تغني به المطربون .. أنها التراثية والخلود التي تثبت شعبية النص الأدبي .

وفي عصر الدول والأمارات ..نجد المتنبي يقول في أحدي مدائحه لسيف الدولة الحمداني بصورة تحمل معاني الأقدام وعدم تهيب الموت وهذه سمه للعربي في كل العصور ..

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمي هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

وهكذا وبعد كل هذا التجوال عبر دروب الشعر العربي يمكن القول أن التراث الشعري العربي كان بمثابة لسان حال الشعوب العربية حيث كان قريباً من أفهام الجماهير بلغته السهلة البسيطة ومضامينه المعبرة عن الشعور الإنساني فعبر بذلك حواجز الزمان والمكان محققاً ذيوعاً وانتشاراً وخلوداً علي مدي الزمن .

وعليه فالشعر الشعبي العربي يعد امتداداً طبيعياً للشعر العربي الفصيح .. فهو يحمل خصائصه وأغراضه ، ويعول عليه في أوزانه وقوافيه ويلتقي معه في أخيلته وصوره ويجاريه في موسيقاه وجرسه .. فليس هناك ما يناى عنه إلا ما دخل هذا الشعر من بعض اللحن أو ترك الهمز أو مجافاة الفصيح في بعض استعمالاته أو حتى أوزان الفصيح الستة عشر .

وعليه فمن يتذوق هذا الشعر العربي الفصيح ويقرأ أبياته يفاجأ بأنه يدور في فلك الشعر الشعبي الحقيقي يجئ معه بكل ما يحمله الشعر الفصيح من لفظ ومعني وأحياناً بتصرف يسير وأحياناً بغير تصريف .

وبعد .. فهذه صورة واضحة .. لكن الأوضح منها تلك التي نراها مبعثرة في كتب التراث امتدت لها اليد حيناً بالدرس والتمحيص ونبذتها أيد أخري في بعض الأحايين بالاتهام ومرات بالإهمال .

لكن الراجع للمكتبة العربية والمستقصى لمؤلفاتها يستطيع الوقوف علي ذلك الشعر الشعبي العربي .

ففي كتاب الحيوان للجاحظ : نلحظ ذلك الشعر الزاخر بمختلف صور الحياة .. فيه سياسة الأقوام والأفراد .. فيه الحديث عن الحيوان والإنسان والشجر .. وفيه الحديث عن الطب وعن الأمراض والنباتات الطبيعية.. وفيه حلي النساء .

وفي كتاب البيان والتبيين للجاحظ : أيضاً نري التراث العربي القديم في الشعر وما به من وصايا وحكم وطرائق ونري فيه إشادة بفصاحة العرب وعادتهم وتقاليدهم .. وأزيائهم وحليهم .

وفي كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة نلحظ غزارة المادة الشعرية التي يغلب عليها الجمع والرواية وفي نفس الوقت نجد من خلال كتب عشرة الرأي والمشورة والقضاء بين الناس ونجد الحروب والخدع فيها والعدة والسلاح والشجاعة ونجد الشرف والمجد والحلم والغضب والعز والذل والمروءة والطباع ونجد الفصاحة والبداهة و الارتحال ونجد الدعاء والمناجاة والتهجد والوعظ وكلام النساك والزهاد ونجد العلاقات الاجتماعية بين الناس ونجد صنوف الأطعمة ونجد المهور والزواج والولادة والعشق .. الخ .

وفي العقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسي : نجد النصوص الشعرية الغزيرة والتي تدور حول المواعظ والأدب والزهد والطبائع والطعام وعادات النساء ، وذكر الأنساب وفضائل العرب .

وفي كتاب الأمالي لأبي علي القالي :نري نصوصاً شعرية غزيرة أشبه بمنجم من المعادن الثمينة .

ثم هناك التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه وما ورد فيه من شعر يحكي تاريخ العرب منذ قديم الأزل .

وأيضاً أخبار اليمن لعبيد بن شرية الجرهمي ، وما حواه من نصوص شعرية مماثلة ، وهذا كتاب الأغاني الذي لا يدانيه في منزلته وفي غزارة مادته من شعر استوعب ثقافة العصر وحصيلة المعارف حيث التاريخ والاجتماع والمجون والجد والغناء .. انه صورة للحياة الاجتماعية لذلك العصر الذي جمع فيه من عادات وتقاليد ومجالس ومآكل وأزياء وآلات وأنماط بناء وأثاث

وفي كتاب زهر الأدب لأبي اسحق الحصري القيرواني نجد نصوصاً شعرية في وصف الليل والماء والرعد والبرق والمشيب ،

وكتاب نفح الطيب لأبي العباس المقرئ وما حوي من نصوص وافيه من الشعر تعني بالتاريخ والاجتماع حيث ذكر الأندلس وموشحاتها .. الخ .

وفوق هذا وذاك نجد شعر التراتيل الدينية وما كان ينظم في الأعياد والأعراس وفي الحروب والمآتم وما كان ينظم حداء للإبل في سيرهم ليلاً وفي كل عمل يقتضي حركة متصلة في القتال وفي السقي من الآبار .. وما كان ينظم في سوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة وما كان يستتبع ذلك من تجمع الناس وتحلقهم في هذه الأسواق ..الخ .

الهوامش والمصادر

١ – راجع – أبو الفرج الأصفهاني – كتاب الأغاني – ج ١٤ .

٢ - المصدر السابق - ج ١٥ .

٣ - ابن عبد ربه – العقد الفريد – دار الكاتب العربي - بيروت - ١٩٨٣ - ج ٢ – ص ٤٥

٤ - راجع للاستزادة :-

أ - د . شو قي ضيف – تاريخ الأدب العربي – دار المعارف - القاهرة

(في العصر الجاهلي ، في العصر الإسلامي ، في العصر العباسي الأول ، في العصر العباسي الثاني) .

ب – د . شوقي ضيف . الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور – دار المعارف – ط١ – ١٩٧٧ .

ج – د . سعد إسماعيل شلبي – الشعر العباسي عند التيار الشعبي – مكتبة القاهرة – ١٩٨٧ .

د - جورجي زيدان- تاريخ آداب اللغة العربية – ط١ – ١٩٨٣ .

ه – د . محمود زهني : -

* تذوق الأدب – طرقه ووسائله – الأنجلو المصرية – بدون تاريخ ؛

* الأدب الشعبي العربي – مفهومه ومضمونه – مطبوعات جامعة القاهرة - فرع الخرطوم- ١٩٧٢

و- د . حسين نصار – الشعر الشعبي العربي – منشورات اقرأ- ط٢ – لبنان- ١٩٨٠

٥ - ابن خلدون – المقدمة – دار ابن خلدون – الإسكندرية -ج ٢ .

٦ – د . محمود ذهني – الأدب الشعبي العربي – مصدر سابق – ص ٨ .

٧ –ابن خلدون – المقدمة – مصدر سابق .

٨ – ابن عبد ربه – العقد الفريد – مصدر سابق .

٩ – الجاحظ – كتاب الحيوان – ج ٢ – ص ١٠٣ – ١٠٤ .

١٠ – د . محمود ذهني – الأدب الشعبي العربي – مصدر سابق – ص ٨٣ .

١١ - د شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي - مصدر سابق ص ١٩٠ .

١٢ - يوري سوكولوف – علم الفولكلور – ترجمة حلمي شعراوي ، وعبد الحميد حواس - الهيئة العامة للتأليف والنشر – القاهرة – ١٩٧١ .

١٣ – د . محمود ذهني – الأدب الشعبي العربي – مصدر سابق – ص ٦ .

١٤ – ابن عبد ربه – العقد الفريد – مصدر سابق – ج ٣ – ص ٤٣٠ .

١٥ – يقصد الجرس الصغير .

١٦– ديوان أبو نواس .